شرح قصيدة شربنا على ذكر الحبيب مدامة

تتألف قصيدة شربْنا على ذِكر الحَبيبِ مُدامة من واحد وأربعين بيتًا، نظمها الشاعر ابن الفارض على البحر الطويل ورويّ الميم، وفيما يأتي نذكر أشهر أبيات هذه القصيدة ونشرحها بالتفصيل:

- **شَرِبْنَا على ذكْرِ الحبيبِ مُدامَةً / / / سكِرْنَا بها من قبل أن يُخلق الكَرْمُ**
  لها البدرُ كأسٌ وهيَ شمسٌ يُدِيرُهَا / / / هلالٌ وكم يبدو إذا مُزِجَتْ نَجم

يقول الشاعر ابن الفارض في مطلع أو مستهل هذه القصيدة: شربنا بذكر الحبيب وهو النبي محمد صلّى الله عليه وسلّم مدامة تُسكر أكثر من شرب الخمر، مدامة تُسكر من قبل أن يُخلق الخمر في هذه الأرض، ثم يصف هذه المدامة بأنّها مدامة في كأس هو البدر تشبه الشمس، يديرها علينا الهلال، ومتّى ما صُبّت ظهرت النجوم فيها.

- **فإن ذُكِرَتْ في الحَيّ أصبحَ أهلُهُ / / / نَشاوى ولا عارٌ عليهمْ ولا إثْمُ**
  وإن خَطَرَتْ يوماً على خاطِرِ امرىءٍ / / / أقامتْ به الأفراحُ وارتحلَ الهمُّ
  ولو نَضحوا منها ثرَى قبرِ مَيّتٍ / / / لعادتْ اليه الرّوحُ وانتَعَشَ الجسمُ
  ولو طَرَحُوا في فَيءِ حائطِ كَرْمِها / / / عليلاً وقد أشفى لفَارَقَهُ السّقمُ
  ولو قَرّبُوا من حانِها مُقْعَداً مشَى / / / وتنطِقُ من ذِكْرَى مذاقتِها البُكْم

يقول الشاعر: إنّه إذا ذكر الحبيب محمد عليه الصلاة والسلام في الحي صار أهل الحل نشاوى وليس عليهم في هذا عار ولا إثم، وإن خطرَ النبي في بال امرئ تملكه الفرح وغاب عنه الهمّ والحزن، ولو نضحوا بذكره الثرى في قبر ميت لعادت الروح إلى هذا الميت وانتعش جسمه من جديد، ولو رموا عليلًا بذكر النبي عليه الصلاة والسلام لأضحى وقد شُفي من العلة أو السقم الذي ابتلي به، ولو قرّبوا من ذكر الحبيب مُقعدًا لا يستطيع المشي لمشى ولو ذُكر اسمه على البكم لنطقوا بإذن الله رب العالمين.

- **ولو عَبِقَتْ في الشرق أنفاسُ طِيبِها / / / وفي الغربِ مزكومٌ لعادَ لهُ الشَّمُّ**
  ولو أنّ رَكْباً يَمّموا تُرْبَ أرْضِهَا / / / وفي الرّكبِ ملسوعٌ لمَا ضرّهُ السّمّ
  ولو رَسَمَ الرّاقي حُرُوفَ اسمِها على / / / جَبينِ مُصابٍ جُنّ أبْرَأهُ الرسم

يقول الشاعر في هذه الأبيات: إنّه إذا عبقت في أقصى الشرق أنفاس طيب ذكر الحبيب، لشفي المريض بالزكام في أقصى الغرب، ولو أنّ مجموعة من الرجال قصدوا أرض الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام وبينهم ملسوع، لما ضر هذا الملسوع السم الذي يسري في جسده، ولو قام من يرقّي الناس بالآيات القرآنية برسم اسم الحبيب على جبين مصاب لبرئ بإذن الله رب العالمين.

- **تُهَذّبُ أخلاقَ النّدامى فيَهْتَدِي / / / بها لطريقِ العزمِ مَن لا لهُ عَزْمُ**
  ويكرُمُ مَن لم يَعْرِف الجودَ كَفُّه / / / ويحلُمُ عِنْد الغيظ مَن لا لهُ حِلمُ

يقول الشاعر: إن ذكر الحبيب محمد -صلّى الله عليه وسلّم تهذب أخلاق المتسامرين المتنادمين، فيصير كل من ليس له عزم، يصير له عزم عظيم، ويكرم من لم يعرف الكرم والجود كفه يومًا، أي تغير طباع البشر من البخل إلى الجود والكرم، ويصير حليمًا من كانت صفته الأولى الغضب.

- **يقولونَ لي صِفْهَا فأنتَ بوَصفها / / / خبيرٌ أَجَلْ عِندي بأوصافها عِلم**
  صفاءٌ ولا ماءٌ ولُطْفٌ ولا هَواً / / / ونورٌ ولا نارٌ وروحٌ ولا جِسْمٌ
  تَقَدّمَ كُلَّ الكائناتِ حديثُها / / / قديماً ولا شكلٌ هناك ولا رَسم

يقول الشاعر: إن الناس يقولون لي صف هذا الذكر العظيم، فأقول: نعم عندي بها علم وبأصافها خبر، ثم يبدأ بالوصف، فيقول: هي صافية ولكنها ليست ماءً ولطيفة ولكنها ليست نسمة هواء، وهي كالنور ولكنها ليست نارًا وهي روح من غير جسد، ثم يقول: إن حديثها تقدم حديث كل الكائنات منذ القدم ولا شكل لديها ولا رسم.

- **ولا قبلَها قبل ولا بَعْدَ بَعْدَهَا / / / وقَبْليُّة الأبْعادِ فهْي لها حَتْم**
  محاسِنُ تَهدي المادِحينَ لوَصْفِهَا / / / فَيَحْسُنُ فيها منهُمُ النّثرُ والنّظم
  ويَطْرَبُ مَن لم يَدْرِهَا عند ذِكْرِهَا / / / كَمُشْتَاقِ نُعْمٍ كلّما ذُكرَتْ نُعم

يتابع الشاعر هنا الوصف، فيقول: إنّه لا يوجد قبلها وجود ولا بعدها وجود، وفيها من المحاسن ما تهدي طريق المادحين لكي يصفوها بأحسن الأوصاف، فيصير الشعر والنثر حسنًا في وصفها، ويطرب كل السامعين بها، كمن يشتاق نعم وهو اسم فتاة، كلما ذكر اسم نعم أمامه.

- **وقالوا شَرِبْتَ الإثمَ كلاّ وإنّما / / / شرِبْتُ التي في تركها عندَيَ الإثم**
  وعندَيَ منها نَشْوَةٌ قبلَ نشأتي / / / معي أبداً تبقى وإنْ بَلِيَ العَظْم

يقول الشاعر: قال الناس إنك شربت الإثم كله، فقلت إنما شربت التي إن تركها فعلت الإثم الذي تقصدون، وعندي منها نشوة قبل أن أنشأ في هذه الحياة الدنيا، نشوة باقية معي وإن بلي العظم كله.

- **فما سكنَتْ والهمَّ يوماً بموضعٍ / / / كذلك لم يسكُنْ مع النَّغَم الغَمُ**
  وفي سكرةٍ منها ولَوْ عُمْرُ ساعَةٍ / / / تَرَى الدَّهْرَ عبداً طائعاً ولك الحُكْم
  فلا عَيْشَ في الدُّنْيا لمَن عاشَ صاحياً / / / ومَن لم يَمُتْ سُكْراً بها فاته الحزم
  على نفسه فلْيَبْكِ مَن ضاع عُمْرُهُ / / / وليسَ لهُ فيها نَصيبٌ ولا سهمُ

يقول الشاعر: إنها لم تسكن في يوم مع الهم في موضع واحد، وكيف يسكن الغم مع النغم في الأصل، ثم يقول: إنّ لحظة السكرة منها إذا مرت ولو كانت على مدى ساعة واحدة، ترى الدهر مطيعًا لها، ثم يقول الشاعر: لا يوجد في هذه الدنيا عيش لمن ظل صاحيًا وكل من لم يمت سُكرًا بها فاته الكثير من الحظ، وعليه أن يبكي على عمره الضائع، لأنّه لم يحصل على أدنى نصيب منها.